يقظة العرب .. وأمل البشرية

بقلم زوقان قرقوط

لم يكن من عبث القدر ان يبدأ تفتح القومية العربية على اثر انقسام العالم الى معسكرين متناحرين ، متضادين . فالعرب الذين بلوا الحكم الاجنبي في ازيائه المختلفة وعانوا تجارب عديدة من الخطأ والصواب بدأوا يعرفون كيف يشقون طريقهم في كفاح الاستعمار وينفصلون عن فلكه كما ينفصل النور عن الظلام ، ويطغى عليه ، دون ان ينحازوا الى الفلك الاخر . ذلك ان القومية العربية التي تتفتح في نفوسهم وتضيء جوانب ذهنهم ليست مجرد لفظة مستعارة من الخارج ، تطغى عليها النظريات الدارجة ، ولكنها قومية متميزة تنبع من صفات عربية تبلورت على مر العصور ، وهي كلما ازدادت احتكاكا مع تيارات العصر المتضاربة ، وتفاعلا مع الاحداث ، التي تضغط عليها ، او تقويها كلما تكشفت عن منابع جديدة وخطت نحو تأكيد ذاتها . وهي ، بخلاف كثير من القوميات ، ذات ماض حضاري عربي في القدم عانت فيه الامة العربية وجوها عديدة من حاجات الانسانية ، واستجابت لها . فلا عجب اذا وجدنا وراء هذا التفتح ارادة اصيلة ، صلبة تعرف كيف تقول « لا » ومتى تقول وتمتنع على كل ما يضر بسلامة هذا التفتح .

ان القومية العربية منيعة على الاستعمار ومغرياته لانها تستهدف القضاء عليه في ارض العرب ، وهذا يعني القضاء عليه في اهم مراكزه ومصادر قوته في العالم . لذلك — ما دام العرب قد شقوا طريقهم — فان تحرر الشعوب المستعمَرة قد اصبح مرتبطا الى حد ما بتحرر العرب . وهي منيعة على « النظريات الثورية » القديمة ، الرائجة اليوم ، لا لانها غير ملائمة طبيعة العرب الحرة فحسب ، ولكن ، لانها لا تفي أيضا بحاجاتهم ونزعاتهم الذاتية واندفاعهم للتجدد . ان حاجة العرب للانقلاب على واقعهم الفاسد المتراكم ، منذ مئات السنين ، والظروف الاستعمارية المختلفة ، التي تضغط عليهم وتحيط بهم ، هيأت للقومية العربية جميع الاسباب لتصبح اغنى واعمق ثورية ، على الصعيد القومي والانساني ، من تلك « النظريات » ، وان التجارب المتعددة ، المختلفة ، التي تمر بها كافة الاقطار العربية ، في طريقها الى وحدتها ، وتحررها ، ستخط هي نفسها أشمل النظريات الثورية واصدقها انطباقا على الواقع العربي والانساني ، وتعبيرا عن أمانيه .

وتلك المناعة لا تعني ان القومية العربية جامدة لا تأخذ ولا تستفيد بل على العكس فان حرارة الثورة فيها قادرة على صهر كل ما تتلقاه من الاصدقاء والاعداء وتحويله لصالحها وصالح الانسانية بروح جديدة وعلى مستوى جديد .

★

كان انقسام العالم الى معسكرين ، انقساما حول نظريتين تتنازعان السيطرة على هذه الكرة وتدعيان — كذبا او صدقا — الايمان برسالة انسانية شاملة . ولكن العالم لا يدور كله في فلكي هاتين النظريتين . ان اكثريته تنوء تحت وطأة اوضاع بالية ويتحكم فيها الجهل والفقر والاستغلال والاستعمار . غير ان جماهير هذه الاجزاء الواسعة من العالم بدأت تتململ وتسعى في سبيل حياة افضل . والورقة الرابحة والوحيدة ، المكشوفة بيد المعسكر الشرقي هي لصالح هذه الجماهير . بينما اتجه المعسكر الغربي الى الطبقات الحاكمة والطامعة في الحكم والمستثمرين تمشيا مع طبيعة نظامه واهداف مصالحه . ولكن ، على الرغم من ان اكثرية الجماهير العالمية تعادي المعسكر الغربي الا انها ليست مع المعسكر الشرقي في الاستجابة لنظريته . انه يحاول جذبها ولكنها ترنو الى افاق ابعد منه .

وقد بات من المستحيل — بعد تطور القوى والمخترعات — توصل احدى النظريتين الى بسط نظامها على العالم . فالى متى يمكن ان تستمر المبارزة بين المعسكرين في حرب الاعصاب المسلطة على البشر دون ان يؤدي الاحتكاك اخيرا ، في منطقة ما ، الى حرب عالمية لا يستطيع احد تقدير نتائجها على الحضارة الانسانية والعقل البشري؟ ان الخطر ، كل الخطر ، يكمن في انفراد هاتين النظريتين بالمبارزة نيابة عن البشر .

★

اذا كان مصير الانسانية ، اليوم ، بين ايدي المعسكرين فان انقاذها حتما بات بعيدا عنهما . لقد اجتازت الشعوب مرحلة المفاضلة بين النظامين الشرقي والغربي وتقدير عدالة احدهما على حساب الاخر . ذلك ان اتساع رقعة هذا المعسكر ، او ذاك ، لا يبعث على تسكين القلق ، الذي يملأ قلب كل انسان على الوجود البشري ، اذا لم يكن هذا الاتساع ، على العكس ، باعثا على زيادته . فالامل في تبديد القلق وفي الاستقرار ، بل والامل في انقاذ الانسانية ، بات موقوفا على وجود القوة الفعالة ، الايجابية بين المعسكرين ، فهل اصبح الاختيار بين النظامين ، فرضا كالقضاء والقدر ؟! هل ضاق العقل البشري وعجزت قدرة الانسان عن الوصول

الى تحقيق نظام ثالث او رابع يقيم العدالة الاجتماعية، ويكون اكثر استجابة لرغبات البشر ؟ ليس من العلم في شيء ولا من الخير ولا من الايمان بتطور البشرية وتقدمها ، ان يقال: امامكم طريقان لا ثالث لهما : اما الماركسية او الاستعمار .

ان آفاق العقل البشري قد اتسعت كثيرا وكشف التقدم العلمي ووسائل الحضارة الحديثة عن اتجاهات جديدة ، توالدت ، اما نتيجة للتناقضات الموجودة في كل من النظريتين الساعيتين الى السيطرة على العالم ، او نتيجة للاحتكاك بينهما وبين اتجاهات دفينة . واذا كانت القوانين الاقتصادية المثلى تنطبق على كل المجتمعات ، فهل تنطبق تجربة مجتمع ما ، على بقية المجتمعات ؟ مع ان لكل مجتمع ظروفه التاريخية والسياسية وبيئته الجغرافية وحاجاته الخاصة للنمو والتطور ودوافعه الذاتية . ليس بمستطاع اي نظرية من النظريات الاحاطة بالعالم كله ، حتى النظرية الماركسية التي تبدو اكثر تماسكا من غيرها قد اصبح لها ـ بعد الاخذ بها في ثلاث دول مختلفة : روسيا ويوغسلافيا والصين ـ ثلاثة وجوه مختلفة نوعا ما ، لولا الظروف السياسية المحيطة بالعالم ، لانكشف التباين بينها اكثر وضوحا ، سيما اذا جاءت دوافع هذه التجربة حية من الداخل ، خالية من التصنع ، والتقليد الاعمى .

*

لقد نشأ النظام الاستعماري على اثر الاكتشافات الجغرافية والاختراعات العلمية وتقدم الانتاج ، على حساب شعوب العالم ، لصالح اقلية منها ، وكان في الواقع ، استمرار النظام العصور الوسطى وما قبلها في الاستغلال وسيطرة الاقوى، على الرغم مما بين العصور الحديثة وتلك العصور من تناقض وتفاوت في المستوى العلمي والفكري .

كانت اوربا ثائرة فحول الحكام ثورتها الى الخارج ، وغمرتها نفحات الابداع ، فادخل في روعها ان الاعجاز الذي حققته بمخترعاتها ، انما مبعثه ان العناية الالهية اناطت بها مهمة القيادة في العالم . وكانت كلما توغلت في استعمار العالم ومعرفة احوال شعوبه الغارقة في الاوهام ، كلما ازدادت قناعة وايمانا بمهمتها تلك .

ولم تعتبر اوربا نفسها، التي قادت تقدم علم النفس، ومعرفة قوانين العقل والاكتشافات التاريخية والاثرية ، بالحقيقة المنطقية التي تؤدي اليها هذه المعارف الا وهي: مبدا المساواة بين العقول والشعوب والامكانيات البشرية ، ولا بمبدأ نشوء الحضارة وانقراضها ، وانما بقيت تعتقد ، نسجا على منوال المراحل التاريخية الماضية ، انه في مقدور شعب ما ، او مجموعة متجانسة من الشعوب ، اقامة حضارة رائعة على انقاض الحضارات الخاوية ، واستغلال الشعوب الاخرى ، بينما تتميز المرحلة التاريخية التي نمر بها الان ، بان العلم جعل في مقدور شعوب العالم جميعا ، ان تمضي معا ، وفي الوقت نفسه ، قدما ، في النهوض والابداع واقامة الحضارات الخاصة بها ، كل شعب في المجموعة البشرية يعزف لحنه المهيأ له .

استوحي ماركس من جميع الثورات التي وردت الى علمه في التاريخ وخاصة الثورة الفرنسية وما تلاها من حركات . ومما لا شك فيه انه استطاع ان يثور على كل شيء ولكنه عجز عن الثورة على الشيء الوحيد والاساسي في تكوين نظرته: وهو يهوديته. ومن مميزات الفكر اليهودي مركب النقص الذي يحرك كل نزعاته ، بانه شديد ومضطهد، اينما كان ، وانه على صواب ، والمجتمعات الانسانية كلها ، على خطأ . فتقويض كل شيء في العالم يساويه بالناس جميعا ، ويهيء له الوضع المناسب ، للتفوق عليهم . ولقد خبت اليوم جميع التيارات الاجتماعات والدينية والاقتصادية والسياسية التي كانت تسلط على اليهود في اوربا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصورة خاصة كما خبت بالمقابل تصرفات اليهود ونزوعهم للتحكم او اخفاقهم. ولكننا ما زلنا نعثر لها على صور ادبية متفرقة منتشرة في اثار الكتاب من سجون القياصرة في سيبيريا شرقا حتى غرب اوربا . فكما ان مشكلة العمال وارباب العمل وهجرة الفلاحين من الريف الى مراكز الصناعة كانت تضغط على عقول المفكرين لايجاد الحلول الملائمة ، فكذلك كانت مشكلة اليهود الاجتماعية احدى مشاكل المثيرة، وكل انتاج يهودي لابد وان يكون احد مراميه التوصل الى حل لقضية اليهود ، وحتى ماركس لم يشذ عن هذه القاعدة في الصورة التي رسمها للدولة العالمية والفردوس المنشود .

ولقد استعار الثائرون على القيصرية في روسيا هذه النظرية التي صيغت بوحي من ظروف اوربا ، ولما تكن ظروف الشعوب السوفياتية ، مهيأة بعد ، نفسيا وفكريا واقتصاديا ، لقبولها ، وان كانت معبأة حقا ، للثورة على نظام الحكم القيصري الاقطاعي الفاسد ، دون ان يعني ذلك تطبيق النظرية الماركسية ، الا في راى قلة ضئيلة .

ولكن توضع الشعوب السوفياتية الجغرافي ، وانعدام منافذها الاقتصادية والسياسية الا باتجاه موسكو جعل لها وضعا خاصا يكاد يكون فريدا في العالم . فقد اصبح ارتباطها بعضها ببعض ، بعد مراحل تاريخية عديدة مرت بها ، قدرا لا مفر منه . فلما اجتاحتها الارثوذكسية وسقطت بيزنطة اوهمها القياصرة بانها الوريثة الشرعية وبالتالي اناطت بها العناية الالهية حمل رسالة الارثوذكسية الى العالم . **وجاء طابع الشمول الذي تحمله النظرية الماركسية يملاء الفراغ في نفسية الشعوب السوفيتية الذي احدثه اسقاط المهمة الارثوذكسية عنهم بسقوط القياصرة .**

اتجهت نظرية ماركس الى العمال « الذين لا وطن لهم » والذين جذبهم تطور الصناعة في المدن فهجروا الارض ، ولكنهم ، واجهوا قلة المأوى وسوء التغذية والتحكم بالاجور، وكثرة المشردين من ابنائهم وضيق المدارس . وكانت اكثرية هؤلاء العمال تنحصر في مدن اوربا . اما الريف في اوربا فلم يحس بهذه المشكلة وكانت مشكلته الهامة قلة الايدي العاملة . وعلى العكس من ذلك تماما كان الوضع في

الروسيا . لم تكن المصانع تتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة ، وكان العمال في المدن ، قلة ضئيلة ، الا ان الريف ، على سعته ، كان يعج بالمشردين وبالاسر المعدمة التي كثيرا ما كان يبتلعها غول الشتاء المخيف ، لانها لا تجد ما يسد رمقها. لذلك فان الثورة فرخت هناك ، وحملها ابناء الريف الى مدارس المدن الكبرى ومصانعها ونواديها . وكانت الثورات كلها في اوربا ، لا الماركسية وحدها ، قدوة لتلك المشاعر الثورية تغذيها وتؤنبها على تخلفها . وجاءت الفضائح واخبار الانكسارات واخبار الاسرة الحاكمة ، فاسقطت قدسية الوراثة ، وحطمت اخر الامال في ابوتها الروحية .

*

تدعي الماركسية ان التاريخ يتطور لصالحها . لذلك فان استباق الروسيا لهذا التطور ـ اذا صح ما تدعيه ـ اضطرها الى استعمال القسر على نطاق واسع في البداية، لان النظرية ، كما يقال ، كانت فجة . والواقع انها تضمنت كثيرا من الاحكام الخاطئة ، المستعصية على التطبيق. كان المفروض ان يساند عمال اوربا هذه الثورة ، التي هي في واقع النظرية ـ ثورتهم . ولكنهم لم يتعرفوا عليها . لماذا ؟ الان القومية وقفت في وجهها ؟ ان القومية السليمة لا تقف في وجه ثورة انسانية . غير ان القوميات في اوربا قامت على الاحقاد ولم تنبع من الشعوب ، لذلك لم تنضج فيها المشاعر الانسانية ، وانما كانت مصطنعة ينفخ فيها الحكام من روحهم . وجاءت الظروف التي اعقبت الثورة فطبعتها بطابع التحدي .

لذلك اصيب النزوع الثوري في جماهير اوربا بنكسة مزدوجة : من جهة لانها لم تكن تتصور ان تحقيق امالها يتطلب ذلك المقدار من المآسي الذي ارتكبته الثورة بحق مختلف الطبقات ، وادركت من جهة اخرى ان الفردوس الذي حلمت به لم يكن في الواقع كصورته المرسومة على الورق صورة منطقية ، مترابطة ، فلما استقرت الاوضاع في الروسيا وحققت نهضة عظيمة واظهرت مقدرة مدهشة في استخدامها لطاقاتها البشرية والطبيعية ، كانت المشاعر الثورية ، ليس في اوربا فحسب بل وفي نفوس الجماهير العالمية ايضا ، قد تخطت ، بمراحل ، المستوى الثوري في النظرية الماركسية . ذلك ان شعوبا جديدة ـ لم تدخل في حساب ماركس ـ اقتحمت المسرح العالمي ، مزودة بذخائر تاريخية وقيم ، وتجارب ثورية جديدة .. ومهما كانت التفاسير التي تساق ، اليوم ، تبريرا لانحلال « الاميات » الثلاث ، فان تحول المشاعر الثورية عن الاستجابة للنظرية الماركسية ككل ، وتلمسها لاتجاهات جديدة ، هما اهم التفاسير .

لم يكن ماركس « نبيا » ولم يكن في كل ما قاله « علميا » بالمعنى المراد اليوم ، اي قادرا ، وبلغة الارقام ، على تصور التطورات التي تطرأ على البشرية. لم يكن نبيا ، لانه تنبأ بقيام الثورة الشيوعية في اوربا ، المجتمع المتقدم صناعيا، فاذا بها تنطلق من مجتمع زراعي متخلف جدا ، ولم يكن علميا في كل ما قاله لان كثيرا مما قاله بدا مخالفا للحقيقة العملية . لقد حصر تطور المجتمع في الانقسام الى طبقتين بينما نجد وسائل الحضارة الحديثة وطبيعتها ان تخلق انواعا عديدة من الطبقات ، تتكون مع كل منها ، افكار وتصورات واخلاق مختلفة . وكثيرا ما نرى بعض الماركسيين يحاولون عبثا البرهان على ان طبقة الاطباء او المحامين او الاساتذة او الكتاب في عداد طبقة البروليتاريا الكادحة، لئلا يعترفوا بان ماركس قصر عن قدرة التصور التام لتطور المجتمع ، مع العلم بان البروليتاريا كانت تعني فقط ، عمال المصانع، وليس كل العمال . وليس من الضروري ـ لكي تسود العدالة ـ ان تصبح الارض ، ملكا للدولة او ان تستغل جهد العمال في شراء محصولاتها ، او تمتلك جميع المصانع ، وليس من الضروري ليكون الحكم باسم الشعب وللشعب ان تقام الدكتاتورية البروليتارية ، او ان لا يكون هناك اية ديمقراطية صحيحة بدونها . وكذلك ليس من الضروري ـ لاقامة مجتمع عادل ـ الايمان بالمادية الديالكتيكية والاقرار باسبقية العامل المادي ، كما ليس من الضروري حبس العقل البشري او التضييق عليه لارغامه على الاعتراف باتجاه واحد .

ولقد كشفت محاولة تطبيق النظرية الماركسية سلسلة من الاخطاء ، وحقا ان اسباب كثير منها تعود الى بقايا الترسبات من العهود السابقة . ولكن كثيرا منها ، ايضا ، يعود الى ما في النظرية نفسها من مجافاة للواقع والحقيقة. ولذلك وبعد مرور واحد واربعين عاما على هذه الثورة ، يقال عنها انها ما زالت في المرحلة الاولى من الاشتراكية ولم تدخل المرحلة الشيوعية . ومن هنا ايضا نشأت فكرة « تطوير الماركسية » . وكلمة التطوير لا تعني ، دوما، في اذهان الماركسيين ، التقدم بالنظرية الى الامام ، بل كثيرا ما تؤدي عمليا الى المخالفة ، وان كانت لا تعترف بذلك، كما تحمل احيانا اخرى معنى التبرير. ومصدر هذه المغالطات الايمان الاعمى بعصمة ماركس عن الخطأ . وهكذا يقع الماركسيون ، في احبولة المغالطات نفسها ، التي يقع فيها اتباع المذاهب الغيبية ، للبرهان على انطباق مباديء هذه المذاهب ، على تطورات الحاضر والمستقبل . ويبدو ان مقدار ما في الماركسية من حقائق علمية لا يكفي للاقتناع بها لذلك كان الايمان الاعمى ضروريا ، ليس بما دوّن الكتب ، ولكن بكل القيادات المحلية وتفسيراتها وتحالفاتها وتصرفاتها ايضا .. حتى أشعار اخر .

*

ان الظروف التي جعلت من المجتمع السوفياتي مجتمعا ثوريا ممتازا وخلقت فيه ارادات جبارة قد زالت من داخله. نعم بقيت الظروف نفسها او ما يشابهها تحيط به من الخارج ، ولكن هل تكفي الظروف الخارجية وحدها ، وهي البعيدة عن التأثير المباشر في كل شخص، لتخلق في الاجيال الجديدة المقدار نفسه من الطاقات الثورية ، والاحساس بالمهمة ؟ لقد اصبح من حق هذه الاجيال ان تميل الى التمتع بنتائج جهدها .. بينما نجد شعوبا اخرى تستيقظ

اليوم ، تشترك فيها ضغوط الظروف الداخلية والخارجية بدرجة الغليان ، لتولد طاقات ثورية عظيمة ، خليقة بان تبني مجتمعا اكثر تجاوبا مع الطبيعة الانسانية، لانه اجد تجربة واقرب الى المستقبل . اليس في ذلك علامة كافية ، على تحول ميزان القيادات الثورية في العالم ؟

لقد ظن القلقون على مصير الانسانية ان تقرير مبدأ التعايش السلمي والاعتراف بامكانية الوصول الى تحقيق الاشتراكية بطرق مختلفة سيخففان من حدة التوتر . ذلك ان مبدأ التعايش السلمي ، معناه ـ ضمنا ـ اعفاء الشعوب السوفيتية والجيش الاحمر من مهمة تحرير العالم من الرأسمالية ، تلك المهمة ، التي اراد الماركسيون القدامى ، وخاصة ستالين ، ان يضطلعوا بها . ومبدأ الاعتراف بوجود طرق عديدة لتحقيق الاشتراكية معناه اعادة كل من الاحزاب الشيوعية المحلية في العالم ، الى العيش مع الشعب الذي انبته ، والتفاعل معه ، تفاعلا صحيحا . وهيهات ، لمن قطعوا اوصالهم من الارض ، وتنكروا طويلا لتاريخ بلادهم ، ان يعودوا اليها طائعين ، مستغفرين .

اذا امكن للنظامين ان يتعايشا ، فهل تستطيع الشعوب المستعمَرة الصبر على الاستعمار ؟ ان طبيعة الامور تدعو الشعوب ، لا الاحزب الشيوعية في العالم ، الى رفع الراية في كفاح الاستعمار . ذلك ان الاستعمار يتهم المعسكر الشرقي ، بانه يحول دون امتداد نظامه على العالم ، وبالمقابل يعتبر المعسكر الشرقي ، ان النظام الرأسمالي الغربي هو اخر المراحل التي تؤدي الى الشيوعية العالمية . وبين هذا وذاك يغفل الدور الايجابي المبدع الذي يمكن لهذه الشعوب ان تفاجيء به المعسكرين .

*

تحلم الشعوب العريقة بالسلم والتخلص من ويلات الحروب منذ بداية العصور التاريخية على الاقل . وحتى وقت قريب كانت جميع النزعات الاخرى تتغلب على الرغبة في تحقيق هذا الحلم . اما اليوم فان الحرب التي قد تشتعل من بقاء هذين المعسكرين وحدهما يتبارزان على المسرح العالمي ، تهدد الوجود كله بالفناء . **لذلك فان نزعة البقاء وهي اقوى النزعات والغرائز جميعها ، تدفع فكرة الحياد الايجابي بين المعسكرين الى الوجود .** ففكرة الحياة الايجابي لم تولد اذا من طبيعة التضاد بين الكتلتين او تضارب التيارات الفكرية ، والسياسية في العالم ، او عدم القناعة بصحة احد النظامين المتنازعين ، او من وعي الشعوب ويقظة تاريخها ، فحسب ، وانما من كل ذلك معا . ولقد القيت هذه الفكرة ببساطة حتى خيل انها فقيرة المحتوى . ولكن غناها ـ ككل الافكار العظيمة ـ كان في بساطتها ، فما ان القيت حتى انتشرت كالسحر واستجابت لها الشعوب ، وعثرت فيها على طريق الانقاذ .

تلك هي الظروف التي تتفتح فيها القومية العربية، تتنسم المتطلبات الانسانية وتعب رياحها ، وقد تهيأت امامها جميع الوسائل والظروف لتصبح قدوة لجميع الشعوب المناضلة في سلوك الطريق الصحيح : انها تعاني من الاستعمار وضعا نموذجيا تجد فيه جميع الشعوب ما يماثل اوضاعها ، لذلك فان كل انتصار تحرزه هذه القومية على الاستعمار يشق طريقا لتلك الشعوب ويبعث املا . وهي تعاني الوانا عديدة من محاولات الغزو الاجنبي العقائدي ، لا في هذا العصر وحده وانما من عصور عديدة ومن وراء اشكال مختلفة ، ولكنها صمدت لها وتغلبت عليها . وكل خطوة تجتازها لتأكيد ذاتها وابراز صفاتها المميزة تبعث الثقة في تلك الشعوب ومزيدا من اليقين بالمحافظة على مقوماتها الخاصة . والقومية العربية بالتالي تتمتع باهم موقع جغرافي بين الكتلتين من جهة وبين الشعوب الثائرة ، المناضلة من جهة اخرى كما ان ارضها تحتوي على اكبر ثروة بترولية في العالم وتمتلك امكانيات مادية قلما تتيسر لقومية اخرى . وعلى ارضها تجرى اكبر ملحمة في التاريخ ففيها يتقرر مصير الاستعمار ويتصفى صراع التيارات الفكرية والسياسية .

*

ان واقع الانسانية المعذبة يستحث هو ايضا القومية العربية : والعرب الذين فطروا على حب العطاء والذين تأخذهم النشوة كلما شعروا بعبء المسؤولية ، يغتبطون بمواجهة قدرهم في هذه المرحلة التاريخية العصيبة من حياة الانسان .

لذلك فان جميع قوى الشر في العالم تقف اليوم في وجه اندفاع القومية العربية الجديد ، وتحشد كل امكانياتها لتأخيرها او تشويه نوعيتها : فالاستعمار وشركاته والصهيونية العالمية ومؤسساتها، ليس في الدول الرأسمالية فحسب وانما في الدول الاشتراكية ايضا ، تتعاون كلها وبايقاع واحد على القومية العربية . وهذه القوى الشريرة، وان اختلفت فيما بينها بنوعية اهدافها ومصالحها في البلاد العربية، الا انها جميعها قد استندت الى حد كبير في انشاء فلسفة وجودها على استمرار علاقتها بالبلاد العربية وتحقيق مصالحها فيها . لهذا الغت منذ البداية العمل مع الفئات الحاكمة ورؤوس الطبقات الرجعية والانتهازيين في بلاد العرب ورهنت بقاء مصالحها بتعاقب نوعيات معينة على الحكم . واذا كانت ركائزها تتهاوى الواحدة تلو الاخرى اليوم فان وسائلها ما زالت عديدة ، متنوعة : الوان من الافساد الخلقي والثقافي ، ضغط مباشر ، تحريك قوى خارجية ، . . الخ اذ اصبح هدفها الرئيسي ـ وهي تتراجع امام اندفاع القومية العربية لا ان توقف تحرر العرب ووحدتهم ، فقد بات هذا حقيقة لا مفر منها ـ وانما هدفها الرئيسي تشويه واضعاف اصالة هذه القومية وتحويلها الى غير اهدافها الحقيقية .

هكذا نرى ان القضايا التي يعانيها العرب سواء اكانت خاصة ام عامة ، داخلية ام خارجية ، قضايا ذات نوعية شاملة ، وثيقة الصلة بامال الانسانية . لذلك فان تصفيتها لا تقتصر على الكفاح الموضعي وانما تقتضي كفاحا عالميا، ولذلك فان تفوق القومية العربية عليها لا يرفعها الى

المستوى العالمي فحسب وانما يصلها بجميع قوى الخير في العالم .

★

تشير جميع الثورات والحركات التحررية في بلاد العرب الى انها لم تتخذ لها « نموذجا » ثابتا تقتدي به في تاريخ العالم او حاضره ، كما انها لم تتخذ طابعا رجعيا مستمدا من ظاهر الاشكال الجامدة في واقعها نفسه او ماضيها . انها لم تعش في بطون الكتب ، وانما كانت اندفاعات ذاتية بلت الحياة وتلقفتها بكل جوارحها: يتمازج فيها معا: الشعور بماضي العرب العظيم وكبريائهم الجريحه ، بالادراك لمستوى الصراع العالمي ، بالنزوع الواعي الى المستقبل . وعلى الرغم من الجواجز المصطنعة بين اقطار العرب والتباعد المفتعل — فان هذا المنطلق الذاتي الاصيل رفعها جميعها منذ البداية الى الايمان بشعارات واحدة ، سرعان ما وجد العرب — انى كانوا — انفسهم في كل قطر واستجابوا لامانيه . وعلى الرغم من ان الاستعمار ، تعاونه كل قوى الشر ، يستفرد كل قطر بقيده ثم ينقض عليه ، فان اشد الصعوبات والمآسي لم تدفع اي قطر للانحراف عن هذا الخط السليم . ذلك ان كل قطر لا يفقد في احلك الظروف ، شعوره ، بان العرب معه ، ان لم يكن اليوم فغدا ، فهو يكافح صابرا بقوة التاريخ والمستقبل ، فخير له ان يفنى ، ضاربا المثل للاجيال المقبلة بثباته على قيمه ومبادئه وايمانه بقدرته على الابداع وتحقيق الخير ، من ان يدلل على عقمه باستعارة ما هياه غيره . واذا كانت ثورة الجزائر اعظم معجزة للعروبة في التاريخ الحديث بصمودها وتنظيمها وتحديها للاخطار واستهانتها للحياة نفسها ان لم تكن حياة عربية منيعة ، فانها كذلك ايضا لانها الدليل على ان العروبة الغنية لا تتسع للاستعارة وانها حريصة — وهي تدق ابواب المستقبل — على ان تنقل اولا للانسانية ما في تجربتها من ابداع .

★

هذا الطريق ، الذي تسلكه طلائع الثورة العربية ، هو طريق المستقبل . انه طويل ، صعب محفوف بالاخطار ، ولكنه كذلك لانه الطريق السوي . فهو طريق الاقوياء ، الصادقين الواثقين بانفسهم وبامتهم وبالانسانية المبدعة ، انه طريق الاوفياء الذين يخلصون لجذورهم في ارض العرب وسمائها ، حدبت عليهم فحق عليهم ان ينقذوها ويحققوا ما احتضنته من خير بلا تدنيس . وليس طريق الضعفاء ، المتشككين ، الذين تقطعت اوصالهم ، وفقدوا جذورهم في الارض والتاريخ والذين يجبنون عن القتال الا اذا كان لهم ظهر منيع .

ولقد بهرنا شعوب العالم ولم نخض بعد سوى القليل من معارك كثيرة تنتظرنا . فماذا عندما ينتصر الشعب العربي في كل مكان وتلتقي تجاربه وتتفاعل ، فاية ثقة نبعثها في شعوب العالم ؟

فهل كثير علينا الايمان بان نجعل من مستقبلنا ، الذي ننزع اليه ، مناط امل الانسانية ؟ نحن ابناء الامة التي نشأت في ربوعها الرسالات الاولى فكانت تباعا ارقى الرسالات الى البشرية ؟! كيف نستكبر على هممنا او يستكثر علينا بعض الدخلاء قدرة الاضطلاع باعباء مهمة انسانية ؟

دمشق

ذوقان قرقوط